المبحث الأول

مثيرات داخلية

يُقَسَّم تاريخ العراق السياسي في القرن السابع الهجري إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل الغزو المغولي، وهي عهد الدولة العباسية، ومرحلة ما بعد الغزو حين رسم ذلك الغزو نهاية الدولة العباسية التي عمَّرت أكثر من خمسة قرون(١)، ووضع بداية لتاريخ جديد للعراق، لذلك فلابد لكل باحث أن ينظر إلى ذلك الحدث المؤثر نظرة اعتبار لما له من تأثير في كل مفاصل الحياة آنذاك.

فالمرحلة الأولى تقاسم حكمها أربعة خلفاء من بني العباس، إذ بويع الناصر لدين الله بالخلافة سنة خمس وسبعين وخمسمائة إلى حين وفاته سنة اثنتين وعشرين وستمائة للهجرة، ووصف بأنه كان من أفاضل الخلفاء وأعيانهم، بصيراً بالأمور، شديد الاهتمام بمصالح الملك لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيته،وفي أيامه انقرضت دولة آل سلجوق، وبنى المساجد ودور الضيافة للحجاج والفقراء(٢) إذ أعاد للخلافة السياسية والإدارية هيبتها، وفي عهده رخصت الأسعار رخصاً كبيراً، وأهتم بإصلاح الأراضي الزراعية والسدود(٣)، حتى وصف عصره بأنه كان من (أزهر عصور بني العباس وأعظمها قوة ونظاماً.... فقد

(١) كانت دولة العراق في عهد الخليفة الناصر لدين الله لا يتجاوز نفوذها من أقصى الكوفة إلى حلوان ومن تكريت إلى عبادان، فكان العراق على حد قول ابن الأثير من البصرة إلى تكريت، ثم أضيف إليه دقوق وخوزستان، وفي عهد المستنصر أضيفت له مدينة إربل، ينظر: الكامل في التاريخ، ٥٩٥/١٠، ٥٠٠/١١، معجم البلدان، ٢٩٥/٢، الحوادث الجامعة، ٤٤-٤٩، الفخري ص٣٣، تاريخ دولة آل سلجوق ص٢١٥.

(٢) ومع ذلك فقد وصفه الفخري بالبخل، إذ يقول: أنه ملأ بركة من الذهب فرآها يوماً وقد بقي يعوزها حتى تمتلئ وتفيض شيء يسير، فقال: أترى أعيش حتى أملأها، فمات قبل ذلك، ويُقال أن المستنصر شاهد هذه البركة، فقال: ترى أعيش حتى أفنيها، وكذلك فعل، ينظر: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٢٢.

(٣) ينظر: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، لابن الساعي، ٢٢٩/٩-٢٣٠، وينظر: طبيعة المجتمع العراقي في العصر العباسي المتأخر، حسين علي قيس القيسي ص٥٤-٥٦.

كان خليفة هذا العصر الناصر لدين الله أعظم سياسي عباسي، وأحسن بني العباس اضطلاعاً بأمور الخلافة)[١].

ولما توفي الناصر سنة اثنتين وعشرين وستمائة للهجرة استخلفه ابنه الظاهر بأمر الله، الذي قيل إنَّه أحسن في الرعية، وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وفرَّق الأموال، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وبإسقاط جميع ما جدده أبوه، حتى قيل إنَّه لما دخل الخزائن قال له خادمه: كانت في أيام آبائك تمتلئ، فقال ما جعلت الخزائن لتمتلئ، بل تفرغ وتنفق في سبيل الله، فإن الجمع شغل التجار[٢]، ويبدو أنه كان عازماً على النظر في أمور الرعية وأحوالها، إذ نظم فيه الشعراء الكثير من المدائح[٣]، لكن يبدو أن أقدار العراق ومنذ القدم لا يُطَمْئِنُها هناء أهل العراق، حتى أخذت تسير بهم نحو المهالك والمصائب، فلم تمهل المنيةُ الخليفة طويلاً، إذ لم تطل خلافته سوى تسعة أشهر وأيام، فقد توفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة[٤]، تاركاً فرحة العراقيين توأد في مهدها.

وبويع المستنصر بالله بالخلافة سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وكان جواداً كريماً وهباياته وعطاياه أشهر من أن يُدَلَّ عليها، فقد قيل إنَّه كان يقول: (إنِّي أخاف أنَّ الله لا يثيبني على ما أهبه وأعطيه، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وأنا والله لا فرق عندي بين التراب والذهب)[٥]، وفي أيامه فتحت إربل، وعمَّر المساجد وأهتم بتحسين وسائل الري ودرء أخطار الفيضانات بترميم السدود وجمع الجيوش، وحمل الناس على أقوام السنن، وكفَّ الفتنة في زمانه، لكن ذلك لا يعني اندثارها[٦].

وكان جده يسميه القاضي لهداة عقله وإنكار ما يجد من المنكر[٧]، وافتتحت في عهده المدرسة المستنصرية سنة (٦٣٠ هـ) التي قيل فيها إنَّها: (أعظم من أن توصف وشهرتها

---

(١) مقدمة الجامع المختصر، ٩/ ص أ- ج.
(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٢٩٧-٢٩٨، وتاريخ مختصر الدول، لابن العبري، ص٢٤٢.
(٣) ينظر: بعضها في الفخري، ص٣٢٩-٣٣٠.
(٤) ينظر: تاريخ الخلفاء ص٢٩٨، الفخري، ص٣٢٩.
(٥) ينظر: الفخري، ص٣٠٣، والآية ٩٢، من سورة آل عمران.
(٦) ينظر: الحوادث الجامعة، ص٨٠-٩٠، البداية والنهاية، ١١٣/١٣.
(٧) ينظر: تاريخ الخلفاء ص٢٩٩.

تُغني عن وصفها)[١] وقيل: (ليس في الدنيا مثل هذه المدرسة ولا بني مثلها في سالف الأعوام)[٢] ووصفها الإربلي بأنها: (كعبة الأنام وقبة الإسلام، مجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين)[٣]، إذ نقل إليها من الكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حمالاً[٤]، وأنشد الشعراء فيها المدائح الكثيرة، وكانت غاية المستنصر حين شيَّدها (خدمة الدين، وأن تكون هذه المدرسة مكاناً لتآلف المذاهب وتصافيهم، وكانت المدارس قبل المستنصرية مذهبية، أي كل مدرسة تختص بمذهب واحد)[٥] وفي ذلك إشارة إلى الاستقرار السياسي.

إذ يرى ابن خلدون أنَّ التواشج بين انتشار التعلم والظرف السياسي قائماً فيقول: (إنَّ تعليم العلم من جملة البضائع، وإنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والعرف واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، كما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، ولما تناقص عمرانها وابذغر (يعني قل) سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام)[٦]، ولكن ذلك لا يعني بطبيعة الحال ارتفاع نسبة المتعلمين، إذ أنَّ دراسة المذاهب في المدرسة المستنصرية لا تعني أنها مؤسسة ثقافية كبيرة، فعدد طلابها كان (٢٩٨) طالباً، (٢٤٨) منهم لدراسة مذاهب الفقه الأربعة و (٣٠) لدراسة القرآن الكريم و (١٠) لدراسة الحديث و (١٠) لدراسة الطب، وهذا العدد ليس بمقدوره إشاعة التعلم والثقافة لشعب بلغ الملايين، وتجاوز حدود طاقة تلك المجموعة الصغيرة من المتعلمين.

وبوفاة المستنصر بالله سنة (٦٤٠ هـ) وخلافة ابنه المستعصم عاش العراق حقبة عصيبة مهدت للانهيار الداخلي ثم الاحتلال، فقد وصف المستعصم بأنَّه كان متديناً حافظاً

(١) الفخري، ص٢٩٢.
(٢) مرآة الزمان ٧٣٩/٨.
(٣) خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٨٨.
(٤) الحوادث الجامعة ص٥٣.
(٥) الشعر العربي في العراق ص٦٧.
(٦) المقدمة ص٣٤٤.

للقرآن لين الجانب عفيف اللسان، كثير التلاوة، يظهر عليه خشوع وإنابة[١] إلا أنَّه (كان مُستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعاً فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور.... شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة، وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه في التنعم باللذات)[٢].

وقد تمرَّدت عليه طائفة من عساكر المماليك الترك مطالبين بزيادة أعطياتهم ولما رفض مقدم العسكر مطالبهم حاولوا الإخلال بالأمن، فكانت تلك أولى مظاهر الضعف في خلافته، والتي كان لها أثر في عدم استقرار البلاد مما كان لها الأثر في إذكاء الفتن والمنازعات بين طبقات المجتمع، ففي السنة الأولى لخلافته ثارت منازعات وفتن بين سكان محلتي المأمونية وباب الأزج نهبت فيها الدور والدكاكين، وفي سنة (٦٤٤ هـ) نُهبت أموال الناس وتعرض مخزن المستنصرية للسرقة، وازدادت أعمال النهب سنة (٦٤٨ هـ)، متخذةً من العداء السياسي مسلكاً لتحدي رجال السلطة، حيث طالت أعمال الشغب بيوت أُمراء المماليك، كما استولت جماعات على المدرسة التاجية في بغداد ونهبوها[٣].

إذ غدا كل منبع من منابع المنازعات والخلافات يمثل رمزاً من رموز التشاؤم لما يخلفه من أصداء سلبية في نفس الإنسان العراقي آنذاك، ويرى علماء الاجتماع (أنَّ الصراع الاجتماعي والعنف ناتج عن النظام السياسي، وفشله في توزيع المنافع بطريقة عادلة)[٤].

ويشير بعض الباحثين إلى تحول خطوط التجارة العالمية بين الشرق والغرب بعيداً عن العراق بسبب سيطرة المغول على بعض الأقاليم الإسلامية المحيطة بالعراق من الشرق كان لها الأثر في عزلة العراق السياسية وتقلص النشاطات التجارية، والاجتماعية، مما أدى

---

(١) ينظر: البداية والنهاية، ١٦١/١٣.

(٢) الفخري، ص٢٩٤-٢٩٥، ويبدو أن المؤلف قد بالغ في هذه الرواية ولاسيما وأنه أنفرد بمدح وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي، لكن ذلك لا ينفي عنها بعض صحتها. ويرى المحامي عباس العزاوي أن الخليفة المستعصم لم يعلم أنه عصى الله بفرجه أو فمه ولا شرب مُسكراً، لكنه لم ينزه سمعه عن سماع المحرم، إذ كان مغرماً بسماع الملاهي، محباً للهو، إذ يبلغه أنَّ مغنية أو صاحب طرب في بلد من البلاد، يراسل سلطان ذلك البلد في طلبه، ينظر: تاريخ العراق بين احتلالين، ٢٠٢/١.

(٣) ينظر: العراق في عهد المغول الاليخانيين، د. جعفر خصباك، ص١٧.

(٤) الأزمة الحضرية العالمية، توماس ل: بلير، عرض وتحليل فاروق أحمد مصطفى، مجلة عالم الفكر، ص٢٤٤.

إلى انكماش تجارة الرقيق القادم من بلاد الترك عبر خراسان إلى العراق وبلاد الشام، مما أثر سلباً في قدرة وفعالية فرق المماليك العسكرية في العراق، بعدما كانت تلك التجارة مصدراً مهماً من مصادر تجنيد المماليك، وأدى ضعف الأوضاع الاقتصادية وشحة موارد الدولة إلى التأثير سلباً في أعطيات الجنود مما ولد التذمر وعدم الاستقرار في نفوسهم، فاتجه العديد منهم صوب بلاد الشام تاركين العراق خلفهم لانقطاع أرزاقهم(١).

كما كان لشدة مظاهر الفوضى والانحلال السياسي والاجتماعي، وكثرة المحن والفتن أثر في غلبة الروح الدينية على أهل العصر من خلال الاهتمام بالمتصوفة وزيادة الربط(٢).

وكان لا بد لنا من هذه المقدمة التاريخية، لأنها في حقيقة الأمر هي الحلقة الرئيسية لظاهرة الاغتراب السياسي، وما تلاها من أنماط اغترابية في القرن السابع الهجري، فالاضطراب السياسي وما خلَّفه من اضطرابات اجتماعية واقتصادية أدى إلى طفح أنواع الاغتراب التي تميزت بها أشعار تلك المرحلة.

إذ عكست البيئة السياسية واقعاً سياسياً مغترباً عبَّر عنه كثير من الشعراء مجسدين نتاجات تلك الاضطرابات، وما تحدثه من تحولات في سلوك المجتمع فلا شكَ أن البيئة الطبيعية والنظم الاجتماعية لأي شعب تؤثر في تشكيل الوعي الإنساني مخلَّفةً نوازع نفسية وفسيولوجية تميزه من غيره في البيئات الأخرى، مما كان له الأثر في إفراز واقع مأزوم،

---

(١) ينظر: العراق بين سقوط الدولة العباسية والدولة العثمانية، عبد الأمير الرفيعي ١/١١١-١١٣، وينظر: العراق في عهد المغول الاليخانيين ص١٧-١٨، وإن صَحت تلك الروايات، ففيها بعض المؤشرات التي تدل على تلاعب بعض أرباب السلطة بمقدرات البلاد، فقد روي أن الدويدار الصغير كان يدبر في خلع الخليفة سنة(٦٥٣ هـ) والمبايعة لولده الصغير، كما ونسبت تلك الحادثة إلى الدويدار الكبير والوزير العلقمي، وفي ذلك أشارة إلى اختلال الوضع الداخلي، كما ويروي السيوطي أن للخليفة أخاً يعرف بالخفاجي، يزيد عليه في الشجاعة والشهامة كان يقول: (إن ملكني الله الأمر لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وأنتزع البلاد من التتار وأستأصلهم، فلما توفي المستنصر لم ير الدويدار وما حوله من أرباب السلطة، تقليد الخفاجي الأمر وخافوا منه، وآثروا المستعصم للينه ليكون لهم الأمر) ينظر: الحوادث الجامعة، ص٢٩٤، تاريخ الخلفاء ص٣٠١-٣٠٢.

(٢) ينظر: الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع، د. مفيد ال ياسين ص٨٤، وذكر صاحب فوات الوفيات أن من الاتفاقات العجيبة أن أول الخلفاء من آل أبي سفيان معاوية وآخرهم اسمه معاوية، وأول الخلفاء من آل حكم ابن العاص اسمه مروان وآخرهم أسمه مروان، وأن أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب والديار المصرية اسمه عبد الله وآخرهم اسمه عبد الله وأول الخلفاء من بني العباس عبد الله السفاح وآخرهم عبد الله المعتصم، ينظر: ٢/٢٣٣.

أمتلك الدور الأكبر في تكريس مفهوم الاغتراب في عقلية أفراد المجتمع ووجدانه آنذاك، والمتمثلة في تلك الصراعات والتقلبات التي طغت على أفراد المجتمع، وأدت إلى حالة من الصراع النفسي، بفعل تلك الظروف السياسية المضطربة ورغبة الفرد في السعي إلى الاستقرار لأنَّ الإنسان (يظل يحن طوال حياته إلى مثل هذا الشعور بالأمن)[١]. فكان إحساسه بالاغتراب يتصاعد بتصاعد دموية تلك الأحداث السياسية المتواشجة طردياً مع آلام النفس مخلفة ذاتاً ينزف آهات وشكوى، وقلق مستمر، يُعبِّر عن (حالة إنسانية نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعي)[٢]، وذلك هو الاغتراب المتمثل في ذلك (الفيض من الضياع والشجن والإحساس بالقهر، والانهزام ورفض الواقع، والانسحاق تحت جبروته، والاغتراب بكل ما يعكسه من قوة ومن ضعف ومن تمرد وخروج على المألوف، هذا العالم الداخلي الذي يدور خارج النفس والذي تشكله دوامات من الوعي واللاوعي، ومن الضوء الباهر والقتامه الداكنة الموغلة في أغوار الأغوار)[٣].

فالاغتراب السياسي ناجم عن أحساس الشاعر بالضياع والقهر بسبب الاستبداد السياسي، وفقدان الأمن والأمل، وهو يعني رفض الشاعر لواقع مجتمعه وهو (رد فعل إزاء عدم القدرة النسبي المدرك على التأثير أو التحكم في مصير الفرد الاجتماعي)[٤].

ولا شك أنَّ الأدب يمثل وثيقة مهمة لتصوير بعض الحوادث السياسية والاجتماعية من خلال تجسيد مشاعر الشاعر، وأثر تلك القضايا في نفسه، فالشاعر مرآة للمجتمع حين يصور إحساسه ومشاعره، إزاء ما يمر به من حوادث، ولا بد للسياسة من أن تهز مشاعره، وتشغل مخيلته وتثير شجونه.

إذ لم يغب شعراء تلك المرحلة عن واقع الأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية في حياة المجتمع العراقي، فقد جسدت بعض أشعارهم طبيعة تلك المرحلة، والتقلبات التي مرَّ بها المجتمع، فغدت وثيقة تاريخية مهمة لا يمكن إغفالها، ففي أواخر الحقبة العباسية ابتلي

(١) مشكلة الحياة ص١٣٣.
(٢) عصر البنيوية، أديث كيزوريل ص٢٦٤.
(٣) الاغتراب في رواية محمود حنفي، محمود زكريا، مجلة الفصول، ص٣٢٥.
(٤) ينظر: الاغتراب شاخت، ص٢٢٦.

المجتمع بأوضاع اقتصادية سيئة رافقها اضطراب اجتماعي سعى في تفكك المجتمع من خلال إهمال البنى الاقتصادية في الريف والمدينة، فعانى المجتمع من الفقر والنهب المصحوب بالكوارث الطبيعية والأوبئة المتمثلة في الطواعين المتعاقبة، فضلاً عن تكرار الفيضانات والطوفانات المدمرة التي عصفت بالدولة آنذاك[١]، وفتكت بالزرع والضرع، والبنى التحتية للدولة، وقد مثل ذلك خطوة مهمة في الإسراع بسقوط الخلافة العباسية، إذ أثرت تلك الكوارث الطبيعية سلباً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وساهمت في خلق كثير من الأزمات النفسية والاجتماعية[٢] والتي أفرزت متغيرات جديدة في المجتمع العراقي.

فقد تكررت الفيضانات والغيوث سنة (٦٤٦هـ) و (٦٥١هـ) و (٦٥٣ هـ) و (٦٥٤ هـ) و (٦٧٦هـ) و (٦٨٣هـ) و (٦٨٥هـ)، وأدَّت في أحايين كثيرة إلى غرق جانبي بغداد والكوفة والحلة وعانة وحديثة وهيت، حتى كان يلتقي في بعض الأحيان ماء دجلة والفرات في بعض الأحياء، مما أدى إلى تلف المزروعات وإغراق الدور وقد وصف بعض الشعراء تلك الحوادث والفيضانات في قصائد معبرة[٣]

فضلاً عن نشوب الحرائق في أسواق بغداد ومساكنها، والتي هلك فيها خلق كثير، كما حدث في سوق المدرسة النظامية سنة (٦٧٠ هـ)، وفي أسواق بغداد ومساكنها سنة (٦٧٥هـ)، وفساد الهواء سنة (٦٧٨هـ) في بغداد والموصل والحلة والكوفة والبصرة وغيرها، فأصاب الناس السعال والغلاء[٤]، وأدى ذلك إلى بروز التناحر بين أفراد المجتمع والذي قاد إلى مجاعات دفعت بعض الناس إلى أكل لحوم الفئران والقطط، وخطف الأطفال وذبحهم وبيع لحومهم، حتى قيل إنَّ الفقراء سعوا إلى بيع أولادهم دفعاً للجوع[٥]. وليس لنا بعد ذلك إلا أن نتصور مدى معاناة أفراد المجتمع حين دفعت بهم الأقدار إلى ذلك السلوك المؤلم.

---

(١) ينظر: الحوادث الجامعة ص١٥٤.
(٢) ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ص٣٠٣.
(٣) ينظر: الحوادث الجامعة، ص٢١٧، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٦٧، ٢٧٧، ٣٩٤، ٤٤٢، ٤٤٨-٤٤٩.
(٤) ينظر: م. ن، ص٣٠٩، ٤٠٧.
(٥) ينظر: الحوادث الجامعة، ص٣٤٣، ٣٤٧، وينظر: حالة الشعر في القرن السابع الهجري، د. نوري شاكر الآلوسي (بحث) مجلة الأستاذ، ص٣٤٠.

إذ أفرزت تلك المؤثرات طبقات متعددة للمجتمع، كطبقة الحكام والوزراء ثم علماء الدين وأعيان المجتمع، تعقبها طبقة الميسورين من التجار وبعض كبار الموظفين، وطبقة رابعة هي الطبقة العامة كالزراع وصغار التجار وعامة الناس، وما يمكن أن يُقال إنها تعيش الفقر، ويقع على عاتقها الأذى وحوادث الشغب والضرائب التي دفع تدهور الأوضاع الاقتصادية بعض الحكام إلى فرضها على الرعية[1]، فأطبق الظلام جفونه على المجتمع، وأصبحت الكثرة الكاثرة في فقر بعد ما انحصرت الثروات بيد الحكام والولاة، ومن سار في ركابهم، فأضحت الهوة سحيقة بين طبقات المجتمع، وملأ الحزن النفوس ودبَّ فيها اليأس.

وإزاء هذا الواقع النفسي المشحون بالتوترات السياسية والخوف من عواقبها يغدو التوجس من متغيرات الواقع هاجساً مقلقاً ينذر بمتغيرات تهز كيان الذات، مؤدية إلى اختلال معايير الفرد وقيمه وتزيد من شدة اغترابه، وعدم توافقه مع الإطار الثقافي العام للمجتمع.

إنَّ الحديث عن الدوافع السياسية يفضي بنا للحديث عن الدوافع النفسية التي أفرزتها تلك الدوافع، إذ أدت الفتن والقلاقل الداخلية إلى خلق ظروف نفسية وحالات الصراع العقلية، والانفعالات السلبية.

إذ أن انقلاب السيطرة السياسية وتخلخل حبل الأمن أدى إلى ظهور توترات اجتماعية برزت من خلالها جماعات تسمى بالعيارين، وظهر في بغداد سنة سبع وسبعين وستمائة صبيان من الشطار كلفوا الناس وتجرَّؤا عليهم، وقد قتلهم صاحب الديوان[2].

ففي سنة (٦٣١هـ) قامت جماعة من العرب بسرقة الناس وقتلهم والتعرض لقوافل التجار ونهبها وتكررت تلك الأحداث مرات عديدة، وقد كتب الفقيه أبو الحسن علي بن البطريق[3] سنة (٦٣١ هـ) إلى الخليفة يعلمه أنَّ بعض قطاع الطرق من العرب طمروا

---

(١) ينظر: العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٦٢، وينظر: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار. د. علي الصلابي، ص٢٤٣، ومن ذلك ما قرره صاحب الديوان سنة ٦٦٧هـ، استيفاء خمسين ألف دينار من بغداد وأعمالها على وجه المساعدة، فشرع في استيفاء ذلك من الناس بالعسف والقهر، فغلقت الأسواق أبوابها واختفى أكثر الناس، فطولبت النساء بما قرر على رجالهن، ينظر: الحوادث الجامعة، ص٣٩٨.

(٢) ينظر: الحوادث الجامعة، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٣) وهو حلي الأصل واسطي المنشأ، له نظم وشعر جيد، ينظر: فوات الوفيات، ١٨٧/٢.

الآبار في طريق الحج ومات من الحجاج خلق، حاول فيها أن يحرضه على قتالهم، يقول فيها: (البسيط)

الكفْرُ في الترك دون الكفر في العرب ... أليس منهم إذا عدوا أبو لهبِ
أليس منهم أبو جهل وبنتهم ... عدوةُ المصطفى حمَّالة الحطبِ
فيا إمام الهُدى يا خير من نظمتْ ... له المدائح يا ابن السادة النُّجبِ
يا أيُّها القائم المنصور أنت إذا ... حضرت وجه رسول الله لم تعب
فأغزُ الاعاريب بالأتراك منتقماً ... منهم ولا ترع فيهم حرمة النسب
فقد غزاهم رسول الله في حرم الـ ... ـه المنيع بإذن الله وهو نبي
وما رعى فيهم إلا ولا نسباً ... ولم يقل أنَّ أُمّي منهم وأبي
إن أدعوا أنهم قد أسلموا فقد أر ... تدوا بمنعهم للحج عن كثب[1]

وأدت سلوكيات بعض الفقهاء والخطباء إلى خلق فجوة بينهم وبين عامة الناس[2] فإن صحَّت تلك الروايات أو مثَّلت ادعاءات على الخطباء، فأننا نلمس فيها الاغتراب المتولد في نفوس الناس بسبب تلك الفجوة المتولدة بينهم وبين قادة المسلمين الذين اعتلوا منبر رسول الله ﷺ، كما نلمس تلك الهوَّة بين عامة الناس وحكامهم، بعدما أخذ الحكام يتجاوزون عن مثل هذه السلوكيات، غير ناظرين لمشاعر الناس، مما حدا بالشعراء إلى الابتعاد عن نصح القادة

(١) الحوادث الجامعة، ٦١-٦٢، وينظر: ص٤٥١-٤٥٢، ٤٧٦.

(٢) منها ما نُقل للوزير سنة ثمان وأربعين وستمائة عن خطيب جامع القصر من أنه شوهد في بستان ومعه جماعة رجال ونساء وهو على حالة منكرة، ثم شاع ذلك وتحدث به العوام في المحافل فأنكر الخطيب ذلك، وقيل= =الديوان عذره، لكن الناس امتنعوا عن الصلاة وراءه بعدما لم يكن في بغداد من يرجح عليه من الخطباء، وقال به بعض خطباء المستنصرية حين عُزل:

(الكامل)

قُلْ للخطيب تعزَّ عن شرف مضى ... وسعادة من جدك المتناهي
إنَّ الخطابة كالخلافة اقسمت ... أن لا تكون لغير عبد الله
فتعلقت بسمي مولانا كما ... يتعلق العشاق بالاشباه
ولئن عزلت لما عزلت لريبةٍ ... بلْ أنت تحت أوامر ونواهي
لكنما الأقدار ليس يردها ... شرفُ الجدود ولا علو الجاه
فارج العواطف فهي تجبر كسر من ... يرميه صرف زمانه بدواهي

ينظر: الحوادث الجامعة، ص٢٥٠-٢٥١.

وإغراق أنفسهم في وصف بعض السلوكيات الاجتماعية بين عامة الناس تاركين الهوَّة تتسع بين الديوان وعامة الناس، وفي ذلك تجسيد لأشد أنواع الاغتراب.

وقد تأتي ردود فعل الناس تجاه ذلك الواقع السيئ، أما بالاعتكاف والانزواء، والبكاء والتضرع من أجل حياة أخروية سعيدة، ولاسيما في أيام النكبات الاقتصادية والسياسية متخذين من نصائح الوعاظ ملاذاً يفرغون فيه همومهم، متكئين على الدين، ومبدأ العقاب والثواب، فيكون انفراج ذلك الوضع السيء مرهونا بالقوة الإلهية، دون أي شعور بالتضامن ضد السلطة، أو الواقع الفاسد، لقناعتهم أنَّ الخليفة هو خليفة الله على الأرض، وضمن هذه المعادلة تتوضح المعرفة الاجتماعية والسياسية والدينية في تلك المرحلة، والتي تمثل وسيلة من وسائل مواجهة الاغتراب دفعاً للتوتر والتأزم والقلق النفسي(١).

لذلك صار ميل الناس إلى الخرافات والأساطير من الأمور المعتادة في حياة الناس، إذ أنَّ (العامة بوجه عام ميالون للخرافة في شؤونهم الدينية)(٢) وفي ذلك تمثيل لعلاقة الإنسان بدينه بصورة معبِّرة عن مستوى تفكيره المتضمن للرموز الخيالية الأولية التي تحمل الصفة القدسية، وبذلك تصبح معرفته الاجتماعية معرفة أولية بهذا الموضوع(٣).

إذ أدعى أحدهم أنَّه عيسى ابن مريم عليه السلام فأنقص من فروض الصلاة(٤)، وكثرت الخرافات مع زيادة المشعوذين، وتواتر أخبار العوام برؤية المنامات، كإدعاء أحدهم برؤية قبر فيه أحد أولاد الحسين رضي الله عنه بمحلة الهروية، فانهال الناس لزيارته وشرعوا في عمارته، كثرت تلك الظواهر،وتناقلت بين الناس أشياء لا أَصل لها حتى قيل إن الناس بطلوا عن معايشهم وأشغالهم بسبب ذلك(٥).

---

(١) ينظر: طبيعة المجتمع العراقي في العصر العباسي المتأخر ص١٨٣.

(٢) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، د.علي الوردي، ص٢٣٢.

(٣) ينظر: علم اجتماع المعرفة د.معن خليل عمر ص٢٤٣.

(٤) ينظر: الحوادث الجامعة ص٤٤٠، ومنها أنه في سنة ثلاث وثمانين وستمائة ظهر رجل في سواد الحلة يعرف بأبي صالح أدعى انه نائب صاحب الزمان أرسله ليُعلم الناس بقرب ظهوره فاستغوى الجهال وأنظم إليه خلق كثير، وأخذ من أموال الناس شيئاً كثيراً، وعندما قتل تكررت رواية ظهوره بين الناس، ينظر: م. ن، ٤٤٠-٤٤١.

(٥) ينظر: م. ن، ص٤٠٤، ومن أغرب تلك الروايات التي وجدت صداها بين عامة الناس سنة (٦٤٦ هـ) أنه حدث بأكثر أهل بغداد أمراض في حلوقهم، وخوانيق، ومات بذلك خلق كثير، وذكرت امرأة أنها رأت في المنام امرأة من الجن تكنى أم عنقود قالت لها: (إن ابني مات في هذا البئر وأشارت إلى بئر

وقد تزداد حرقة الذات المغتربة وتتأجج هواجس الخوف، فلا غرابة بعد ذلك من أن يستنجد الناس بالرسول ﷺ مما أصابهم من نكبات متوسلين به أن يشفع لهم ويزيل ما بهم من غم[1].

وفي بعض الروايات إشارة للهوة السحيقة بين ما يعانيه الناس وما يلهو به الحكام من سواذج الأمور ففي سنة (٦٤٨ هـ) أهدى الخليفة المستعصم إلى الوزير علي بن عمر بن جلدك شدة من أقلام، فكتب له الوزير مقالة نثرية يثني فيها على أفضال الخليفة ومناقبه، ثم قال:

(الوافر)

خولتني نعماً تكاد تعيد لي ... عصرَ الشَّباب وتُدني مني أيَّاما
لم يبق لي أملٌ إلا وقد بلغتْ ... نفسي أقاصيه براً وإنعاما
تعطي الأقاليم من لم يبد مسألة ... جوداً فلا عجباً أن تعط أقلاما
لأفتحنَّ بها والله يُقدرني ... مصاعباً أعجزت من قبل بهراما
إذا نسبن إلى خط فأن لها ... شباً إذا أعملته يخرق الهاما[2]

وفي القصيدة معانٍ ودلالات واضحة لا تقتضي الشرح والتفسير.

داخل سوق السلطان ولم يعزني فيه أحد، فلهذا أخنقكم فشاع ذلك بين الناس، فقصد البئر المذكور جماعة من العوام والنساء والصبيان، ونصبوا عند البئر خيمة، وأقاموا هناك العزاء، وكان النساء ينشدن ويقلن) :

أي أم عنقود اعذرينا ... مات عنقود وما درينا
لما درينا كلنا قد جينا ... لا تحردين منا فتخنقينا

وألقى الناس فيه الثياب والحلي والدراهم والخبز واللحم، وأنواع الحلواء، وأشعلوا عندها الشموع، فلما أكثروا ذلك عابه العقلاء والأكابر وأنكروه، فأمر الخليفة بمنع الناس من ذلك فحضر الشحنة إلى هناك وقال إن الديوان قد أقام لأم عنقود العزاء وأمر بسد البئر، فتفرق الناس عنه، وفي ذلك أشارة إلى حال الناس والحكام في ذلك العصر، ينظر: م. ن، ص٢٢٥-٢٢٦.

(١) ينظر: مثلاً ديوان الصرصري، الوتريات، إذ تناثرت توسلاتهم في أغلب صفحات ديوانيهما.

(٢) ينظر: الحوادث الجامعة، ص٢٤٩-٢٥٠.

ومن أشارات اغتراب الشعراء في تلك الحقبة بعدهم عن تجسيد واقعهم والتجاء بعضهم إلى ما يلهيهم من شعر الألغاز والأحاجي وانشغالهم بالتشطير والتسميط، أو المبالغة في نظم الشعر الاجتماعي(١).

وقد يدفع الاغتراب الشاعر إلى غض الطرف عما يدور حوله، ومحاولة التكيف مع المناخ السياسي العام، ومسايرة أهواء الحكام، ومجاراة رغباتهم للإيحاء إلى الناس بعدالة الحكام وصلاحهم، لتهدئة العواطف الثائرة والمشاعر الناقمة، فاصطبغ شعرهم بصبغة المنفعة، ولم يعد معبراً عن مذهب أو فكر سياسي في أغلب الأحيان، في تجسيد حالة اغترابية متمثلة في قول الشاعر مالا يؤمن به، فراحت ألسنتهم تتسابق وتطلق القول في شرعية الخلافة العباسية، فغدت ظاهرة الغلو سمة تأطرت بها بعض قصائد المديح(٢)، فاغتربت صورة الممدوح عن الواقع.

إذ يحاول النشَّابي تجسيد محبته للخليفة من خلال المبالغة في مدحه وتقديسه إذ أنه أحياه وأوجده من عدم، وأنَّ الله سبحانه مَنَّ به على هذه الأمة لينصرها على أعدائها، ويُعلي به الدين الذي أحدقت به أطماع الشرك، فيقول:

(الطويل)

غلـــوِّي فـــي تعظـــيم آلاء قُدسِـــهِ ... يُبـــرهِنُ علـــى حُبـــي لـــهُ وتعبُّـــدي
وإنَّ غلـــوِّي فيـــه حـــقٌّ لأنَّنـــي ... رأيـــتُ بـــه أحيـــاء مَيـــتٍ مُصـــفَّدِ
وكيـف أُودّي شُـكرَ مَـنْ بعـضُ جـودهِ ... حيـاتي، وجـدواهُ مِـن العُـدمِ موجـدي
فـــلا زال منصـــور اللـــواء مُمتَّعـــاً ... بعـــيشٍ رغيـــدٍ عنـــد عُمـــر مُخلَّـــدِ
ولا برَحـــتْ أعـــداؤهُ بســـيوفهِ ... ضـــحايا وإن كانـــتْ بغيـــبٍ موكَّـــدِ
يُهنَّـــى بـــه العيـــدُ الـــذي هـــو عيـــدُهُ ... وعيـــدٌ علـــى الـــدُّنيا لِكـــلِّ مُعيِّـــدِ(٣)

فطاعته فروض لا ينفك قيدها، إذ يقول: (الكامل)

(١) ينظر: م. ن، ٢١١، ٢٦٥-٢٦٦، ٢٨٥-٣٩٧، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، د. بكري شيخ أمين ص١٧٦، حالة الشعر في القرن السابع الهجري (بحث) ص ٣٥٤-٣٥٥.
(٢) ينظر: مثلاً شعر بن أبي الحديد ص١١٨-٢٥٤.
(٣) ديوانه، ص١٨٧-١٨٨.

وخليفـــةُ الله الـــذي طاعاتُـــهُ مفروضـــةٌ لوجوبهـــا وحقوقهـــا[1]

ويبالغ في تصوير شجاعة الخليفة مجسداً فكرة أن لا نظير للمدوح، إذ يستمر في رسم الصور الإعجازية المتفردة، فهل تولدت تلك الصورة من قناعات آمن بها الشاعر، أم أن طبيعة العمل الفني، ورغبة الشاعر في الكسب المادي، ومحاولة تشكيل الواقع كما يراه هو، كانت الدافع الأكثر تأثيراً؟ إذ يقول:

(الكامل)

يُرضـــي الشَّـــجاعة أن تقلَّـــدَ أبيضـــاً يـــوم الكريهـــةِ، أوتـــأبط أَســـمرا
لـــولا حمـــى ناموسِـــهِ وحُماتِـــهِ للـدِّين، أضـحى الـدِّينُ مُـنحطِمَ الـذُّرى
وهـو الـذي –مـا كـان ديـنٌ ظـاهرٌ- لـولاهُ، حيـثُ عـدا بـهِ مُسـتظهِرا[2]

وربما كان الشعراء يبحثون عن الأمل المنشود في الممدوح لذلك نراهم يحاولون تجسيد أمانيهم في شخصيته، بحثاً عن أمل ضائع علَّه إن وُجِد يبدد أحزانهم، وقد استبشر الناس خيراً بقدوم شرف الدين بن الصاحب شمس الدين الجويني صاحب ديوان المماليك إلى بغداد حين فوَّض إليه تدبيرها، وصور ذلك الاستبشار جمال الدين ياقوت المستعصمي (٦٩٨هـ) بقوله:

(المنسرح)

الحمـــدُ لله قـــد مضـــى التـــرحُ وقـــد أتانـــا الســـرورُ والفـــرحُ
وجـــاء صـــرفُ الزَّمـــانِ مُعتـــذراً فكـــلِّ ذنـــبٍ جنـــاه مُطـــرحُ
لا تعتبـوا الـدهر بعـدها فبنـوا الـد هـــرَ وأحداثـــه قـــد اصـــطلحوا
لـئن عـراهم مـن صـرفه محسـنٌ لقـــد تلتهـــا الهبـــات والمـــنحُ
وقـــد أتـــاهم بكـــل مـــا طلبـــوا مـــنهم ووافـــاهم بمـــا اقترحـــوا

ويُذَّكر الممدوح بعد الترحيب به بمأساة أهل بغداد الذين تطلعت أعينهم بقدومه، ملجأ يلوذ بهم ويطبِّب جروحهم، فيقول:

(١) م. ن، ص١٣٤.
(٢) ديوانه، ص١٦٠.

يـــا شـــرفَ الـــدين والـــذي شـــرفتْ ... بمَدْحـــــهِ المـــــادحون والمـــــدحُ
مـــا غلـــق الله مـــن عطـــا ملـــك ... بابـــــاً لملـــــكٍ عليـــــك ينفـــــتحُ
أنســـتْ بغـــدادُ بعـــد وحشـــتها ... فصـــــدرها باللقـــــاء منشـــــرحُ
قـــد حليـــت بعـــد طـــول عطلتهـــا ... وزينَتْهـــــا القبـــــابُ والملـــــحُ
فـــدُمْ لأهـــل العـــراق ملتجـــأ ... تأســـو بجـــدوى يـــديك مـــا جرحـــوا[1]

وتتعدد أشكال الاغتراب السياسي عند الشعراء، ويصفهم علماء النفس بأنهم (أولئك الذين يشعرون بالعجز.... وبأن عجزهم يعكس خللاً أو يرتابون في أولئك الذين يمسكون بمقاليد السلطة، أو يلتزمون موقف اللامبالاة إزاء هيكل السلطة القائم بالفعل)[2].

وقد يتخذ النقد السياسي عند الشاعر شكلاً مُغايراً تشوبه أحياناً السخرية من سلوكيات بعض الحكام، معبراً عن قلقه النفسي من خلال تعدد بدائل العلاقة المرفوضة، والانسجام مع الواقع السياسي.

فنجد النشَّابي الذي سخَّر شعره مدحاً للمستنصر، ينحو منحاً آخر حين اتخذ من النقد السياسي والاجتماعي وجهة يعتمدها، ولا سيما نقد الحكام وأرباب السياسة، حينما رأى بوادر الانحلال السياسي أخذت تنهك جسد الدولة العباسية، وسعى موظفو الدولة الكبار الذين اعتلوا المناصب العليا وهم دونها رتبة، بنهب أموال الناس طمعاً في الثراء الفاحش، كسخريته من شرف الدين إبراهيم بن علي الموصلي حين تولى الوزارة في ديوان إربل، والذي اتخذ مُنادياً يُشعِر بقدومه إلى الديوان، فلم يستطع بذلك القدوم أن يبدد ذلك القلق أو اليأس الذي توسدت به نفس الشاعر فيقول:

(المتقارب)

فرحنـــا وقلنـــا: تـــولَّى الـــوزيرُ ... وأفلـــــحَ ديوانُنـــــا بـــــالوزارة
فمـــا زادنـــا غيـــر جاويشـــهِ ... وفـــي كُتُبنـــا كُتِّبَـــتْ بالإشـــارة[3]

(١) ينظر: الحوادث الجامعة، ص٤٢٨-٤٢٩، والشاعر هو جمال الدين ياقوت المستعصمي الكاتب الأديب البغدادي، كان خطه جميلاً، وهو آخر من انتهت إليه رئاسة الخط توفي سنة (٦٩٨ هـ) ، ينظر: عيون التواريخ ١٤٢/٢١، فوات الوفيات ٣٧١/٣.

(٢) الاغتراب، شاخت، ص٢٢٨.

(٣) ديوانه (رسالة) ص٣٤٥، الجاويش: المرافق، كلمة فارسية مستعملة في عامية الموصل.

وحين لمس منه وقفات جريئة في وجه الظلم، بات يدعوه إلى إنصاف الناس من خلال التصدي لأصحاب الديوان الذين اتسموا بالطمع والظلم وضياع حقوق الناس، فيقول مؤيداً جرأته في التصدي لهم:

(مجزوء الرجز)

جماعـــــةُ الـــــديوان فـــــي ليلـــــةِ سُـــــخطٍ مُظلمَـــــه
وقـــد غـــدتْ أيـــدي الوزيـــ ـــــرِ مـــــنهُمُ مُنتقِمـــــه
لا رحـــــــم اللهُ الـــــــذي يَـــــرحمُ قومـــــاً ظلمـــــه[1]

ويبدو أن التصدع قد أثلم نفوس أغلب أرباب السياسة، إذ نجد النقد السياسي يمس أو يحوم حول أغلب وزراء العصر العباسي الأخير، بعدما فَقَدَ الناسُ الأمل في إصلاح تلك الوزارات، وأخذ اليأس يذخر نفوسهم المتهالكة المغتربة القلقة من ذلك الواقع المر، فقد تعرَّض النشَّابي ليعقوب بن إسماعيل النصراني مشرف ديوان إربل في عهد الأمير مظفر الدين، حين رأى أن إمساكه برأس الديوان، لا يعني سوى الضياع للدولة، فيقول:

(السريع)

قـد خسـرتْ دولـةُ مَـنْ يرتجـي عنـدكَ يـا يعقـوبُ إصـلاحها
وكـمْ جنـت إربـلُ مِـنْ ضـرَّةٍ وغيـرُ تـدبيركَ مـا اجتاحهـا[2]

ويخاطب الأمير مظفر الدين في موضعٍ آخر، مُعرِّضاً بهذا الوزير ومحرضاً للقضاء عليه، بعدما نهب البلاد إذ يقول:

(الكامل)

يـا أيُّهـا الملـكُ المُعَظَّـمُ إنَّهـا لمشـورةٌ ونصـيحةُ لا تُهمَـلُ
يعقـوبُ قـد نَهـبَ الـبلاد وضعضَـعَ الـ أجنـادَ واسـتغنى غَنـاءً يُـذهِلُ
فاعجـلْ عليـه بقبضـه، فلربَّمـا هُـو لاخِـلاف بقـبض مالِـك أَعجـلُ[3]

(١) ديوانه، (رسالة) ، ص٣٤٤.
(٢) م. ن، ص٣٠٦.
(٣) م. ن، ص٣٢٨، وينظر: ص٥٤.

وعندما سمع الأمير استغاثته وحاول الإصلاح بعزله الوزير، وولى غيره، لم يجد ذلك الفعل في نفس الشاعر ما يبدد قلقها ويذفي اغترابها، بل نجده يشتدَّ قسوة في النقد اللاذع، حينما وجد أنَّ المشرف الجديد ما هو إلا حلقة ممتدة تشابه ما قبلها، إذ يقول:

(الطويل)

فرحنا بيعقوب اللعين وحبسه ... وقلنا: أتانا ما يطيب به القلبُ
فلما ولي المختص فالكل واحد ... إذا ما مضى كلبٌ أتى بعده كلبُ[1]

وعندما يئس من الإصلاح، أو من إيجاد نفس برئت من تلك المفاسد راح يصف أصحاب الديوان ويصنفهم كل حسب مفسدته، ساخراً منهم حين عمد إلى توظيف مصطلحات النحو في نقده السياسي، إذ يقول:

(الخفيف)

قد قسمنا الدِّيوان خَمسة أقسا ... مٍ عليها لكُل قولٍ دليلُ
رُبَّ حقٍّ ولا يُطاعُ، ومنسو ... بٍ إلى الظُّلمِ قولُهُ مقبولُ
ثُمَّ شخصٍ كأنَّهُ الحرفُ في النَّحو ... وِ فلا فاعلٌ ولا مفعولُ
ومُصِرٍ على التجنفِ والظُّلـ ... ـم بعيدٌ عن الصَّوابِ جَهولُ
وأخو حاجةٍ يُمشِّي أحوا ... لاً لديهِ إن جاءَهُ البرطيلُ
أتُراهُم لم يعلموا أنَّ كُلاً ... مِنهُمُ عن فِعالِهِ مَسؤولُ[2]

وفي ذلك نلمس دور الشعراء في بيان روح الاغتراب التي تسيدت نفوس الناس، بعدما بات الاستغلال السياسي هدفاً لأصحاب النفوذ من خلال صرخة اليأس التي تومىء إلى بشاعة الظرف السائد ومحاولات تغييره، وهو الدافع الحقيقي لبروز نزعة الاغتراب محاولين تصوير تفاعلات النفس الداخلية، والتي تمثل صدى للاضطرابات السياسية وبعض السلوكيات الشاذة.

(١) ديوانه (رسالة) ، ص٣٠٣.
(٢) م. ن، (رسالة) ص٣٢٩.

ويبلغ النقد السياسي ذروته بعدما سارت الأحوال منذرة بانهيار أركان الدولة، إذ استولى اليأس على نفوس الناس، وأخذ الطغيان بسلوك الساسة، أيَّ مأخذ عندما أهملوا البلاد والرعية وقد أنذر النشابي من سوء تلك الأحوال بقصيدة عُدت أنموذجاً للنقد العنيف القاسي في أواخر العصر العباسي(١).

وقد دفعت شدة مأساة الناس واغترابهم بالنشابي إلى التحلي بالجرأة في كشف الأوضاع السيئة للبلاد، واختلال الإدارة، وذلك من خلال النقد الشديد لرجالات الدولة، وتوجيه القول نحو سلوكياتهم وانشغالهم بعبثهم، وغرقهم في ملذاتهم، وغضهم الطرف عن أحوال الناس، وكأن الدولة خُلقت لملذاتهم، ولم ينس أن يصب غضبه على بعض رجال الدين الذين لفُّوا لفهم، مباركين أفعالهم ناسين أو متناسين واجبهم الديني ودورهم في تقويم العباد.

فبكى بغداد قبل انهيارها، عندما أيقن الضياع، ولاحت له بارقة ذلك الانهيار في سمائها مُجسَّدةً في سلوك حكامها الذين جعلوا من بغداد مدينة تجذب أحداق الأعداء إليها لضعفها ولهوها بأوجاعها، وأنَّات جروحها الداخلية، بدلاً من تطبيبها لتكون شوكة تفقع تلك الأحداق، إذ يقول، والألم يُصدِّع نفسه:

(البسيط)

يا سائلي، ولمحضِ الحقِّ يرتادُ	أصِخْ فَعندِيَ نِشدانٌ وإنشادُ
واسمعْ، فعندي رواياتٌ تُحققُها	درايةٌ وأَحاديثٌ وإسنادُ
فهمٌ ذكيٌّ، وقلبٌ حاذقٌ يَقظٌ	وخاطرٌ لنفوذِ النقدِ نَقَّادُ
عن فتيةٍ فتكوا في الدِّينِ وانتهكوا	حِماهُ جَهلاً برأيٍ فيه إفسادُ
إذا ترامتْ أمورُ النَّاسِ ليس لَهمُ	فيها رواءٌ، ولا حزمٌ وإنجادُ

إذ يعجب من جهل هؤلاء الولاة وقلة حزمهم في إدارة أُمور الدولة، ويتألم لانشغالهم بملذات الحياة تاركين بغداد خلف ظهورهم تذوب في أَهلها أوجاعاً وألماً، لتكون لقمةً سائغةً يهنأ بها فم الأعداء فيقول:

(١) ينظر: الشعر العربي في العراق، ص١٢٦.

أَمَّـــا الـــوزيرُ فمشـــغولٌ بعنبـــرهِ والعارضـــــانِ فنسَّـــــاجٌ ومَـــــدَّادُ
وحاجـبُ البـاب طـوراً شـاربٌ ثمـلٌ وتـــــارةً هـــــو جنكـــــيٌّ وعَـــــوَّادُ
ومشـرف الدسـت مغـرى بـاللواط، لـه فـــي كـــلِّ ناحيـــةٍ عِلـــقٌ وقـــوادُ

وبدل من أن يقف شيخ الإسلام بوجه الظلم لينبه هؤلاء من غفلتهم يصطف بجانبهم مُكرساً حياته في خدمة الخليفة بعدما أنساه المال والجاه واجبه الديني تجاه وطنه وناسه، إذ يقول:

وشـيخُ الإسـلام صـدرُ الـدِّين هِمَّتُـهُ مقصـــورةٌ لحِطـــام المـــالِ يَصـــطادُ
نمَّتْـــهُ فـــي اللـــؤمِ آبـــاءٌ سواســـيةٌ مـا سـوَّدوا فـي الـورى يومـاً ولا سـادوا

ويصرخ شاكياً لكلَّ من يوصل صدى دموعه وصوته لحبيب هذه الأمة رسولها الأعظم ﷺ الذي نوَّر الأمة بالإسلام، لأنَّ الشاعر أحس بأنَّ رايات الكفر باتت قريبة من بغداد بعدما آل حال حكامها إلى هذا الضياع، فيحذر من عاقبة تلك التهديدات وما يقابلها من لهو عند أَرباب الدولة، وما ينتظر بغداد والإسلام من حوادثٍ لا تحمد عقباها، علَّ شكواه تجد أُذناً تعيها عند مَنْ ضاعوا في غفلتهم التي توشك بضياع ملك بغداد، فيقول:

إن جئـتَ يثـربَ أَو شـارفتَ سـاحَتها فقـلْ لِمـن أُنزلـتْ فـي حَقِّـهِ صـادُ:
الكُفـرُ أَضـرمَ فـي الإسـلامِ جذوتَـهُ ولـيس يُرجـى لنـار الكُفـرِ إخمـادُ
واضـيعةَ المُلـكِ والـدِّينِ الحنيـف ومـا تلقـاهُ مـن حادثـاتِ الـدَّهرِ بغـدادُ
هتـكٌ وقتـلٌ وأَحـداثٌ يشـيبُ بهـا رأسُ الوليـدِ، وتعـذيبٌ وإصـفادُ

فبكى بغداد قبل انهيارها مما تلاقيه من مصائب يشيب لها رأس الوليد، ورثى نفسه وتمنى موته قبل رؤية الفاجعة، وذلك هو أَعظم الداء وأَقساه على النفس، كل ذلك والحكام لأهون بملذاتهم، إذ يقول:

أيــنَ المنيــةُ منــيِّ كــي تُســاورُني ... فللمنيـــــةِ إصـــــدارٌ وإيـــــرادُ؟
مِـــن قبـــلِ واقعـــةٍ شـــنعاءَ مظلمـــةٍ ... يَشـــيبُ مـــن هولهـــا طفـــلٌ وأكبـــادُ[1]

ولابد لكل قارئ لتلك القصيدة أن يشعر بعمق دلالاتها وما يعانيه الشاعر من إحساس بالإحباط، واليأس، والحزن الشديد الذي أجتاح وجدانه وحاول بثه في تلك القصيدة، وهذا الحزن وذلك التشاؤم يُعَدان مظهراً من مظاهر الاغتراب لمالهما من مؤثرات سلبية تصطبغ بها نفس الإنسان حين تموت بداخله أَحاسيس الأمن والثقة بولاته وما يُضفي عليه الواقع من نظرات سوداوية تُلوِّن حياته بقتامة لونها ويبدو أنَّ سوء الحال هذا قد استشعره عامة الناس الذين تحيَّروا بموقف ساساتهم ولهْوِهم عنهم، غير آخذين تلك المخاطر مأخذ جدٍ، فكانت تلك الفجوة بين الساسة وعامة الناس قد عمَّقت أحساس الشعراء بالاغتراب وأَججت مخاوفهم، حتى راح بعضهم يلقي بالرقاع التي فيها أنواع التحذير في أبواب الخلافة، فمن ذلك ما وجد مكتوباً في أحد الرقاع: (المجتث)

قُـــــلْ للخليفـــــةِ مهـــــلاً ... أَتـــــاكَ مـــــا لا تُحـــــبُّ
هـــــا قـــــد دهَتْـــــكَ فُنـــــونٌ ... مِـــــنَ المصـــــائبِ غُـــــرْبُ
فـــــانْهَضْ بعـــــزْمٍ وإلاَّ ... غَشـــــاكَ وَيْـــــلٌ وحَـــــرْبُ
كسْـــــرٌ وهَتْـــــكٌ وأَسْـــــرٌ ... ضَـــــرْبٌ ونهـــــبٌ وســـــلبُ[2]

وفي بعض الأَحيان يعني الاغتراب وصول الإنسان إلى مرحلة عدم الاكتراث واللامبالاة لما يجري حوله، وذلك هو أَدنى حالات الرفض السياسي، إذ أَنَّ أَحد مفاهيم الاغتراب نشوء مشاعر العداء واللامبالاة تجاه ما يسود المجتمع، والارتياب من القادة

(١) ديوانه (رسالة) ص٣٠٧-٣١٠، وتنسب هذه القصيدة في بعض المصادر إلى ابن الفوطي، واثبت محقق الديوان نسبتها إلى النشابي والمقولة سنة (٦٥٥ هـ) قالها أبان تدهور الخلافة العباسية في عهد المستعصم، وانقطاع مصلحته عند الخليفة المذكور، فضلاً عما عُرف عنه من نقد سياسي واجتماعي، والوزير في ذلك الوقت هو مؤيد الدين بن العلقمي، والعارض هو رئيس ديوان العرض المختص بأمر الجند، وفي سنة (٦٣٥ هـ) صار للجند عارضان، وشيخ الإسلام هو شيخ الشيوخ أبو المظفر صدر الدين علي بن النيار ويلقب بشمس الدين أيضاً، ينظر: الحوادث الجامعة، ص١٠٣، ٢٨٣-٢٨٥.

(٢) الفخري، ص٤٦.

السياسيين، والعزلة عن الآخرين[1]، أو توجيه النفس نحو الهروب من الواقع، لذلك تجنب بعض الشعراء ذكر الولاة والحكَّام، وابتعدوا عن وصف الحالة الاجتماعية، ومعاناة حياة القهر واليأس آنذاك، متخذين من الإغراض الأخرى ملاذاً يأويهم، ومأوى يفرغون فيه نفثاتهم الاغترابية.

(١) ينظر: الاغتراب، شاخت، ص٣٠٢.